في صالون العقاد: كانت لنا أيام

الحلقة الثالثة

جمعية للمفكرين الأحرار؟!

أنيس منصور

التصوير

هناك أيام أخرى كانت تشغلنا تماما.

ولكن أخطر هذه الأيام وأعمقها هو يوم تلقى الأستاذ فى ندوته.. حيث الجمال والجلال معا. جمال العبارة وجلال الفكر. حيث الله والحب والخير والجمال فى عبارة واحدة. وفى حكاية واحدة. ويقوم الأستاذ بوضع الحدود بين المعانى.. الحدود الحريرية. والفواصل الحديدية.. فتلك مقدرته الفذة التى لم نجد لها نظيرا عند أحد من الذين نجلس إليهم أو نستمع إلى محاضراتهم..

فى يوم الأحد نذهب إلى «الدير الدومنيكى» فى شارع مصنع الطرابيش بالعباسية. فالدير ليس إلا مكتبة كبيرة فخمة - أو هذا هو القدر المسموح به لنا.. وكنا ندرس الفلسفة المسيحية والإسلامية.. وكنا نجد كتب المسيحية والإسلام واليهودية فى مكتبة هذا الدير.. ونحن نعرف الطريق جيدا إلى هذا المكان الذى لايجذب العين.. فالمبنى له شكل عادى.. الألوان باهتة.. ومثل مسرح الرهبان ليس له إلا لون واحد.. وإن لم يكن فى مثل بياضها ونصاعتها.. وهناك بعض الأشجار. أما الشىء الموجود بوفرة فهو: الهدوء.. والصمت.. والكتب.. والوقت..

حتى الرهبان كانوا مشغولين بدراساتهم وأبحاثهم. ولم يكن أحد ينظر إلينا إلا باسما ومرحبا. ثم يمضى لشىء يعمله.. وكنا نشم رائحة الطعام. وكان ذلك غريبا. إنه طعام آخر غير الكتب. ولابد أن للرهبان غرفا للنوم وأخرى للأكل. ولكن كان يدهشنا أول الأمر أن نجد الرهبان يأكلون ويشربون. أو

في صالون العقاد: كانت لنا ايام

نجد راهبات يدخلن ويخرجن .. وقد اكتست الوجوه كلها بلون واحد : الهدوء والصفاء . وأحيانا اللامبالاة .. والجميع يتحركون بسرعة . فما الذى يفعلونه هنا ؟ كيف يشغلون وقتهم ؟ . لاأظن أنني فكرت فى ذلك كثيرا . فكل ماأعرفه هو أنني أذهب للقراءة الكتب الرائعة التى لاأجدها فى أى مكان . وأجد الهدوء الذى لم أكن أجده فى بيتى فى امبابة فى ذلك الوقت .. ولافى كلية الآداب أو فى مكتبتها العامة . ولافى الطرقات بين الكلية والمكتبة .. أو الطريق بين الجامعة والبيت . ولاغرفة المطالعة فى شعبة « الإخوان المسلمين » بامبابة ..

وكلما وجدنا أمرا صعبا استدرجنا الأستاذ ليوضح لنا ذلك . وكان يفعل . وهو أول من قدم لأفكارنا اعترافات القديس أوغسطين .. ولايفوته أن يضحك أيضا . فيقول : إنه كان فى أسوان دير للراهبات . وكانت الراهبة إذا ظهرت عليها أعراض الحمل نقلوها فورا إلى روما ..

وكان الأستاذ يقول : ولما كانت أسوان صغيرة . وكنا نعرف ماذا يجرى فيها . كنا نشعر باختفاء إحدى الراهبات . ونعرف السبب . ولذلك كان من عادتنا أن نمشى وراء الراهبات ونقول لهن : ألا تحبين أن تسافرى إلى روما ياأخت ؟!

وقبل أن نفرغ من هذه الصورة . ويدهشنا أن يكون أستاذنا العظيم ذلك الشاب الذى يعاكس الراهبات . تجىء ضحكته عالية . وضحكاتنا أيضا . فتمسح هذه الصورة ..

ثم كما هى عادة الأستاذ يعود إلى أعماق الأشياء . ويقول : « ولكن القديس أوغسطين هو أعظم رجال الدين . الذى بكى بغير دمع . فاعترافاته ليست إلا صورة مروعة لرجل أحب أمه وأحب دينه .. أو لأنه أحب أمه .. أحب كل الأمهات . وتعذب لها وبها أيضا . والذين كتبوا اعترافاتهم بعد ذلك . قد قلدوه .. وإن كانوا قد وضعوا قدرا كبيرا من السفالة حيث وضع القديس : الاحترام العميق والندم والتوبة !

ويضرب الأستاذ مثلا بالمفكر الفرنسى جان جاك روسو الذى كتب عنه د. محمد حسين هيكل باشا . والذى فتن به كل الذين اشتغلوا بالسياسة والتربية والذين درسوا فى فرنسا .. فيقول الأستاذ إن روسو هذا مفكر متوسط القيمة . ولكن آثاره أعظم بكثير منه . فالذى تركه فى الثورة الفرنسية . أكبر بكثير جدا وأعظم وأعمق مما كتب . والذين يرونه عظيما يعكسون الأوضاع . فهو ليس عظيما . ولكن آثاره هى العظيمة .. وإذا صح أن يقال عن عود كبريت أحرق مدينة . إن هذا العود أعظم من المدينة . فكذلك يقال عن روسو .. فأفكاره أعواد كبريت . ونتائجها حرائق وثورات ..

ولكن كما هى عادة الأستاذ . فإن الذى يقوله أول الأمر ليس هو المقصود . إنما المقصود هو أن يقول إن روسو لم يكشف عن أعماقه . إنما حاول إخفاءها ..

فهو يقول مثلا : إن أطفاله قد بعث بهم إلى بيوت اللقطاء – أى عل الرغم من أنه لم يتزوج فقد كان له أطفال كثيرون !

ثم يتراجع الأستاذ كما تتراجع البندقية التى وضعنا فيها الخرطوش فيطلق قذيفته : إن روسو كان عاجزا جنسيا . ولذلك فهو فى اعترافاته يؤكد أنه كان ذلك « الفحل » صاحب العيال الذين أخفاهم عن العيون فى الملاجىء !

وقال لنا الأستاذ : وكان من مظاهر شذوذه أنه إذا رأى الفتيات عند البئر . فإنه يتعرى أمامهن . فإذا صرخن كانت هذه متعته الجنسية الكاملة !

ولما وقعت أيدينا على اعترافات روسو بعد ذلك بوقت طويل . لم نهتد إلى هذه الحوادث إلا بصعوبة . فقد جاءت فى صفحات متأخرة من الاعترافات . وجاءت سريعة .

فإن لم يكن المعنى الذى أراده الأستاذ هو أن نبحث عن الجوانب الإنسانية فى كل فلسفة . فلنبحث عن الجوانب المضحكة .. أو يجب ألا نهتز أبدينا وعقولنا ونحن نواجه الصروح الفكرية فى أى عصر أو فى أية لغة ..

وكان يقول : لو عرف القديس أوغسطين بعض الأعشاب التى تنمو فى أسوان بصورة شيطانية . ماشكا القديس من الإمساك ولابكت عيناه فى كل مرة يذهب فيها لدورة المياه . فلى بعض الأحيان لانعرف إن كان القديس موجوع القلب أو موجوع المعدة ..

ثم يتلفت ناحيتى ويقول : إن هؤلاء الفلاسفة الوجوديين يامولانا . ليسوا إلا جماعة نصابين قد أصيبوا بالأرق . وبدلا من أن يتناولوا بعض الأقراص المهدئة . فإنهم فرضوا الأرق فلسفة على الجميع .. اقرأ حياة هذا المختل سارتر .. وذلك المجنون كيركجورد .. وأنت تجد فيهما العجب من العلاقات الشاذة بالأب والأم .. إن قصة الفيلسوف الدانمركى كيركجورد وخطيبته رجينا .. وقصة سارتر ومعشوقته الكاتبة سيمون دى بوفوار واحدة .. وهما لايختلفان عن القديس أوغسطين . كل مالديهم أوجاع خاصة . جعلوها عامة . ومضايقات اجتماعية . جعلوها فلسفة ..

وكان الأستاذ يقترب دائما من الفيلسوف الفرنسى فولتير . عندما يرفض الكثير من الأفكار المألوفة . ويشكك فيها . ثم يضع أفكارا إيجابية . ولايفرض علينا شيئا ..

لقد عرض الكثير وقدمه لنا ونفض عنه التراب وغسل أيدينا . ولم يبق إلا أن نتناول مانشاء .

وأمام مئات الألوف فى مكتبة الدير الدومينكى ومكتبة الجامعة . وضيق الوقت عن التفكير فى كل ماتجمع من معلومات ذهابا وإيابا بين الجامعة والدير . وبين أساتذة الفلسفة الإسلامية والمسيحية والرهبان . كان من الصعب أن يكون لأحد منا رأى مستقل أو تفكير خاص .. فذلك مالم نكن نقدر عليه . لقد كنا أقرب إلى النحل . وأبعد من النحل . فنحن نكدس المعلومات . ولانمتص رحيقها . ولذلك احتشدت أحاديثنا الجامعية بالأسماء والمراجع . واختفى منها الاجتهاد أو الرأى الخاص . وطبيعى ألا تكون للنكتة أو القفشة مكان فى هذه الصفحات الحزينة الشقية . فنحن أشقياء ندرس فلاسفة وقديسين قد أشقاهم التفكير فى الله والكون والنفس وهذه الحياة وما بعد الحياة . وكنا مثل هؤلاء القديسين .. الذين تحفظ صورهم : ليس من بينها وجه يضحك . فالضحك رذيلة . أو الضحك ترف لايقدر عليه إلا كبار الشكاك والمفكرين الإبداعيين من مثل الأستاذ العقاد –

المازنى

فولتير

ومما أنذر صور الأستاذ التى يبدو فيها ضاحكا . فكل الصور التى التقطت له كانت فى ندوته وهو يتحدث .. أو فى المحاضرات العامة أو أثناء الأحاديث الإذاعية . وربما كانت أروع صور العقاد وأكثرها دلالة عليه . صورته وهو فى طريقه إلى السجن .. كأنه ذاهب إلى لقاء محبوبته . وكأنه حاول أن يجعل لقاءه سرا . ولكن لم يفلح . فلما رآه الناس جميعا . أخفى ضيقه فى فرحته بهذا التحدى للجميع ..

وكان الأستاذ يهتم بصوره . وأحيانا يغضب من الصور التى تنشر فى مقالاته . قال لى عندما كنت أعمل فى « أخبار اليوم » : يامولانا .. أنا لا أفهم ماهو المقصود بأن تنشروا فى صورة ضاحكة والمقال جاد . وصورة بالطربوش والمقال ضاحك .. لابد أن تنبهوا سكرتارية التحرير إلى هذا العبث !

ولكن الذى لايعرفه الأستاذ أن اختيار صورة من صوره لايخضع لهذه المقاييس . إنما سكرتير التحرير يختار أية صورة للمقال . بل يختار « مساحة » فقط .. صورة على عمود واحد . أو على عمودين – دون أن ينظر كثيرا إلى هيئة الأستاذ . وليس من الضرورى أن يقرأ سكرتير التحرير مقال الأستاذ أو أى أستاذ . إنه يهتم بالشكل العام لعنوان المقال والصورة التى توضع معه . ولم أفلح فى إقناعه أن الكثير من الاخراج الصحفى ليس عملا عقليا . إنما هو عمل فنى ..

ولكن عقل الأستاذ لايقبل مثل هذه التفسيرات التى يجدها تبريرا وليست تفسيرا . وعقله لايقبل أن أحدا لايفكر بعقله . وأن كل مايقوم به هو عمل واضح – تماما كما يفعل هو ..

مثلا : عندما أعددت لقاء بين الأستاذ وبين المرحومة أمانى ناشد ليذاع فى التليفزيون . تهيأت المرحومة أمانى ناشد لهذا اللقاء . ولكى أمضيت وقتا طويلا فى تدريبها على لقاء الأستاذ

محمد حسين هيكل

جان جاك روسو

وحفظ الأسئلة . وكانت المرحومة أمانى ناشد تلميذتى . فقد درست لها الفلسفة فى الجامعة . وبعد أن تم تسجيل هذا الحديث سألنى الأستاذ عن ثقافة أمانى ناشد فقلت : تخرجت فى كلية الآداب قسم الدراسات الاجتماعية . فقاطعنى قائلا ولكنها يامولانا لا تعرف كيف تنطق الاسماء . فقلت : انها تهيب الحديث إليك . فقاطعنى : كيف تنهيى وتأتى بفستان قصير كما رأيت ؟ فقلت : يا أستاذ انها فتاة أولاً وأخيرًا قال بسرعة ضاحكًا : إنها نصف فتاة لقد صنعت بالأحمر شقة واحدة !

ولم أكن قد لاحظت ذلك ! !

ثم نشرت صحيفة الأخبار : أن الأستاذ العقاد سوف يتقاضى عن هذا الحديث ٢٠٠ جنيه !

• • •

وفى اليوم التالى حدثنى الأستاذ عاتبا غاضبا : ماهذا الذى تنشرونه يامولانا ؟ . هل كثير على رجل كالعقاد قرأ ستين ألف كتاب وأصدر ستين كتابا وأفنى عمره فى عالم الفكر والفن . أن يتقاضى هذا المبلغ ؟ .. ان مضعوضة مثل نجاة الصغيرة تتقاضى ماهو أكثر من ذلك فى عشر دقائق ! .. يامولانا ان بلدا يستكثر على العقاد مثل هذا المبلغ التافه . لبلد تافه . وصحافته أكثر تفاهة !

ولم أعرف ما الذى أغضب الأستاذ . واستأذنته فى أن أعود إلى قراءة الخبر . وقرأته . وطلبته تليفونيا : ياأستاذ قرأت الخبر . ولم أجد فيه مايغضبك ..

وازداد غضب الأستاذ قائلا : مامعنى أن توضع علامة تعجب فى نهاية الخبر ؟ . ماهو العجب فى أن أتقاضى هذا المبلغ بينما يتقاضى طه حسين أضعاف ذلك دون أن يتعجب أحد ؟ .. ألاترى أن هذا هو الذى يدعو إلى العجب ؟

ولم أفلح فى إقناع الأستاذ أننا كثيرا مانضع علامات التعجب دون سبب لذلك . وأن علامة التعجب . مثل علامتى الاستفهام والتعجب معًا ليست لها دلالة خاصة . وأننا نسرف فى ذلك . تماما كما نسرف فى وضع النقط بعد كل كلمة .. وليس لذلك إلا تفسير واحد مؤكد .. هو أننا لم نتعلم قواعد الترقيم – نحن جميعا !

ولم يقتنع الأستاذ . فكل شىء عنده بالعقل وبالتفكر وبالحساب . وكل شىء عن قصد . وقد اتهم سكرتارية تحرير « أخبار اليوم » بأنها من المؤكد تضع عددا كبيرا من الشيوعيين . لماذا ؟ لأنهم يضعون له صورة بالطربوش إذا كان مقاله ضاحكا هازلا . ويضعون له صورة بالطاقية إذا كان المقال جادا . ولذلك فهم محررون . ومادامو محررين لمقال الأستاذ وصورته . فهم إذن شيوعيون !

وقد حدث أن اتصل به الحاج عبد الرحمن السقاف . وكان قادما من الملايو . وطلب إليه أن يزوره فى بيته . فأجابه الأستاذ : أهلا وسهلا فى الخامسة ..

وكان الحاج عبد الرحمن السقاف قد جاء يشترى من الأستاذ حق ترجمة سلسلة « العبقريات » إلى اللغة الملاوية . ويقال إنه سوف يدفع فى ذلك عشرة آلاف جنيه . ويقال عشرين ألفا من الجنيهات الاسترلينية

وقبل الموعد بدقائق : ذهب الأستاذ إلى الصالون . مرتديا البيجامة والطاقية وقد لف الكوفية حول رقبته وجلس ينتظر . وعندما لاحظ ان الساعة تدق الخامسة ولم يحضر أحد . نادى ابن أخيه عامر العقاد قائلا : عندما يجىء هذا الرجل الخطوت فقل له إن الأستاذ قد خرج !

إنها الخامسة ولم يحضر الحاج عبد الرحمن . وكان لابد أن يذهب ابن أخيه ويغلق الباب . وعندما ذهب يغلق الباب وجد الحاج عبد الرحمن قد وصل ومعه ثلاثة آخرون . وفتح لهم عامر العقاد الباب ليجدوا الأستاذ بهم بالخروج من الصالون والانتقال إلى غرفة أخرى

فبادره الحاج عبد الرحمن بقوله . نحن متأسفون ياأستاذ الخ

وكان رد الأستاذ : نعم هذه مسألة موجبة للأسف !

ومضى الحاج عبد الرحمن يقول . إن الطريق إلى مصر الجديدة طويل ومزدحم . وهذه أول مرة أزورك فى بيتك وقد ضللنا الطريق . الخ

ولم يجد الأستاذ فى كل ماقاله الحاج عبد الرحمن سببا مقنعا . إذ كيف يضل الطريق إلى بيت العقاد فى مصر الجديدة ؟ . الى الذى لايعرف العقاد أو بيته ؟ .. الخلاصة ان هذا المثال وكسل واستخفاف بأقدار الناس . ولاشىء يساوى ذلك عند العقاد . لاعشرون ألفا ولا عشرون مليونا !

وجاءت أكواب الليمون وفناجين القهوة . ولم تستغرق المقابلة سوى بضع دقائق . وخرجوا والأستاذ غاضب . ولم ينطقوا على شىء .

وفى الليل اتصل بالأستاذ واحد من هؤلاء الذين زاروه مع الحاج عبد الرحمن . وقال له : ياأستاذ إن الرجل قد جاءك من آخر الدنيا وهو من أشد الناس إعجاباً بك .. ثم إنه لم يتأخر عن الموعد سوى دقيقة واحدة .. ثم كانت مقابلتك القاسية .. إن الرجل حزين حقا ..

ولم يدعه الأستاذ يكمل عبارته . فقاطعه قائلا : جرى ايه ياأخينا .. عندما تصل متأخرا عن موعدك . وتشغل العقاد عن رياضته اليومية . فما الذى تتوقعه منى ؟ هل أقيم لك حفلة تكريم . لأنك جئت تشترى بعض كتبى ؟ .. ملعون أبوك وأبو .. الخ

• • •

أذكر

أننى التقيت مع أحد الرهبان المصريين من الدير الدومينيكى وهو الأب قنواتى . أن نلتقى بالأستاذ . فقد كان من آمال الأب قنواتى أن يترجم بعض دراسات الأستاذ فى الفلسفة الإسلامية . واستأذنت الأستاذ . فقال : الساعة الخامسة يامولانا .

ولم أتمكن من الذهاب إلى الأب قنواتى . فقد تعطل الترام فى الطريق إلى العباسية .. واعتذرت للأب قنواتى عن التأخير . ووجد الراهب الجليل أن عذرى مقبول . وبعد ذلك سارعت إلى الأستاذ أنقل إليه عذرى . ووجدت باب شقته مغلقا . ولم أجرؤ على دق الباب . وفى اليوم التالى لا اعتذرت للأستاذ ولاسألنى . ولكنه رأى أن القضية قد حسمت : أنا تأخرت عن الموعد فأغلق هو الباب !

وضايقنى سكوته . فقاطعته قائلا : ياأستاذ لم أتمكن من الحضور فى الموعد لأن ...

فضحك مقاطعا : يامولانا . ألست مصريا ؟ طبيعى أن تفعل ذلك . وغير الطبيعى أن تجىء فى موعدك . ثم تعال هنا . أنت من المنصورة يامولانا . كان يجب أن تجىء فى موعدك !

وهو يقصد أن أهل المنصورة من أصول فرنسية وتركية !

أى أنه لم يقبل عذرى !

وثما هون على نفسى هذا الحكم القاسى . أننى اقتسمت هذا اللوم العنيف مع كل المصريين !

وفى ذلك الوقت كنا نقف على الحافة . الحافة بين الدين والخروج عليه . وبين الإيمان والخوف منه . أو بين الفلسفة العلمية والدين غير المنطق – كانت هذه هى التعبيرات المألوفة عندنا نحن الشبان الصغار من دارسى الفلسفة . وكنا نحاول أن نقبل للأستاذ ترددنا وتردينا . ومحاولتنا واحترامنا على الحق . وتأكيد الذات وتضحيتها . وكان الأستاذ يعرف ذلك كله . ويراه طبيعيا . ويعبر عن ذلك كله أحسن وأجمل عندما يقول : إنى أقول للحياة نعم . ولكل شىء آخر لا . وليس من الحياة أن نرفض الحياة . ولامن الحكمة أن نقول لا دائما . ولا أن نقول نعم دائما . ولكن نخطىء كثيرا من يقول لا كثيرا . ونخطىء قليلا من يقول : نعم كثيرا .

وكان يشرح قضيته . ويسعفه التاريخ والأدب والسيرة النبوية والسياسة والنوادر والنكت أيضا – كل ذلك فى جلسة واحدة وفى قضية واحدة .

• • •

وفى

يوم الثلاثاء أذهب إلى شعبة الإخوان المسلمين بالمبابة . وكنت وقتها أمينا للمكتبة . وكنا نقبل طلبة فى الآداب والهندسة والطب والتجارة . ولم يكن بيننا سوى شىء واحد عميق . هو : أنه لايوجد شىء واضح ولاطريق محدد . ولاهدف بارز . إنما التقينا فى محيا أثناء غارة جوية . أو كأننا مجموعة من مهرق المخدرات التقينا فى نقطة بوليس .. هل اتهمنا أحد بشىء لم يحدث ؟ هل نبذنا الناس . فاحتمينا فى جماعة الإخوان المسلمين ؟ من المؤكد أننا مسلمون نصلى ونصوم . ولكن فقط نريد أن نعرف . نريد أن نفهم . وكنا لا نجد من يقول . ولا من يدلنا على ماالذى يجرينا .

أذكر أننى ألقيت قصيدة تماسية « مولد النبى » . وكان يجلس فى الصف الأول فوق سطوح هذه الجمعية الشيخ حسن

فى صالون العقاد: كانت لنا أيام

البنا . لاأعرف السبب الحقيق من نظم هذه القصيدة . ولا كيف ألقيتها أمام فضيلة المرشد العام حسن البنا . ولاأعرف كم كان عدد الحاضرين . لم يكن أحد من زملائى . . وبعد أن فرغت من إلقاء قصيدتى عانقنى المرشد العام ، ودعا لى بالخير والبركة . وسألنى : إن كنت مسيحيا ؟

وأدهشنى هذا السؤال . وأكدت له أننى مسلم . . وقد ظننت أول الأمر أنه استنتج ذلك من اسمى . فهو اسم يمكن أن يكون لمسلم أو لمسيحى . ولكن عندما عدت إلى القصيدة وجدت الكثير من تعبيرات الفلسفة المسيحية وبعض أسماء القديسين وأننى استخدمتها دون وعى منى . . وأننى فى ذلك الوقت لم أكن أحسن التمييز بين كثير من المذاهب الفلسفية الدينية المسيحية والإسلامية واليهودية والبوذية . وأننى فى ذلك الوقت كنت أرى أن الفروق قليلة بين الديانات . وكنت أعتقد أن الدين واحد ، ولكن رجال الدين جعلوه كثيرا . ووصفوا إليه طرقا متعددة وأن الله واحد ولكن الناس على مدى التاريخ قد وجدوه كثيرا مختلفا . .

وفى إحدى المرات حسم الأستاذ هذه القضية عندما نبهنى إلى العبارة الأولى فى كتابه « الله » : إن الإنسان ترقى فى العقائد ، كما ترقى فى العلوم .

فقد عبد الشمس ، ثم اعتقد ان الشمس تدور حول الأرض ، ثم انتهى الى ان الأرض هى التى تدور حول الشمس . .

ورغم ذلك فان احدا لم ينكر وجود الشمس . .

فالشمس موجودة دائما ، وكل الاعتقادات لها صحيحة دائما . وصحتها مرتبطة بعصرها وظروفها .

وقد أكد لنا الأستاذ ان هذه العبارات التى جاءت فى الصفحة الأولى من كتابه هذا ، هى أخطر ماجاء فى كل الكتاب . . لأنه يريد أن يقول إن المفهوم الدينى يتغير من عصر إلى عصر ، وهو صحيح فى كل عصر . . فالذين آمنوا بأن الله صنم ، لم يكونوا على خطأ . فهذا أقصى مايستطيع العقل الإنسانى أن يدركه فى ذلك الوقت . . والذين يرون أن الله اثنان وثلاثة ، فهذا أيضا مايتفق مع قدرة العقل وطبيعة العصر والمرحلة التاريخية التى يعيشها هؤلاء المعتقدون . والذين انكروا وجود الله لابد أن لديهم أسبابا منطقية لذلك . . ومعنى الذى قاله الأستاذ : أن اعتقاد الشبان فى مرحلة القلق والحيرة وتكوين الذات والاستقلال بالرأى ، مسألة طبيعية . . ولابد أن تتغير هذه الحالة النفسية أو اليقين الفلسفى ، إذا ماعرفنا أكثر ، وفكرنا أعمق . وهذا ماسوف يحدث لنا فى مرحلة تالية . .

وأعتقد أن سبب فصلى من جماعة الإخوان المسلمين فى إمبابة مع عدد آخر من الزملاء ، هو غموض موقفنا . . ولا أظن أنه كان « موقفا » – فالموقف رأى واضح ثابت فى كل الظروف . والحقيقة أننى كنت أفتقر تماما إلى أن يكون لى موقف فى ذلك الوقت . فأنا أمضى اليوم كله ماشيا على الخيل بين إمبابة والزمالك والحيرة . وكانت أفكارنا مثل خطواتنا تضيق وتتسع . وكنا نمشى فى كل الجهات ، لأنه ليس لنا هدف واضح . وكانت رءوسنا تدور مع كل الرياح . .

ولكنى اكتشفت فيما بعد ان السبب المباشر لخروجى هو أننى ألقيت خطبة فى مسجد البراجيل بالقرب من إمبابة ، ولم أكن واضحا . أو عندما حاولت أن أكون واضحا ، لم تكن تعبيراتى مألوفة . . أو كانت اجتهاداتى خارجة على المألوف . ولست على يقين من ذلك .

ولكن الشىء المؤكد هو أننى عندما ذهبت ، كالعادة ، إلى شعبة الإخوان المسلمين متجها إلى غرفة المكتبة لكى أستذكر دروسى ، وجدت منشورا بفصل أنا وزملائى . . وكان التوقيع : المرشد العام حسن البنا . .

أما التفسيرات التى قيلت لنا فى ذلك الوقت فهى معقولة ولكنها ليست مقنعة . قيل إننا كنا نستهلك نورا كثيرا ، ثم إننا لاندفع اشتراك العضوية . وهذا صحيح ، فلم يكن لنا مكان نلتقى فيه ونتحدث ونذاكر أو نجلس دون أن يخالطنا أحد من بقية الأعضاء ، سوى غرفة المكتبة . . ولم يكن هناك أسف على خروجنا . لانحن أسفنا على ذلك ، ولا أحد . فقد مضينا فى طريقنا . أو فى طرقنا نمشى بلاهدف . .

ولكن أسى جاء بعد ذلك . فقد كان لى أصدقاء كثيرون ليسوا جميعا من الطلبة ولكن من المدرسين والمهندسين والشبان التجار . ولم أعد أراهم . هل هم كانوا حريصين على ذلك ، أو أن هذا هو شعورى ؟ . . هل الذى باعد بيننا هو أن هناك « شبة » فكرية ، أو أن السبب هو أن الدراسة فى الجامعة وهمومها وأعباءها قد عزلتنى تماما . . وأصبحت أمشى فى نفق تحت الأرض ، لايرانى أحد ولا أراه ؟ . .

وكان من بين الإخوان أحد الموظفين فى محل شيكوريل ، قال لى : علاجك عندى . .

إذن فأنا مريض . . أو لعله لم يقصد أننى مريض عقليا أو جسديا . . إنما هو أراد أن يجعل لما سيفعله أو يقدمه أهمية خاصة . . وهمس فى أذنى : هذا الرجل الذى سوف أعطيك عنوانه قد قرأ الفلسفة . . كل المذاهب . . واهتدى إلى رأى . . وسوف يشرح صدرك تماما . .

سألته : من هو ؟ من الإخوان ؟

أجاب : لا . . إنه يهودى ويعمل معنا فى محل شيكوريل . . اذهب إليه ، لقد حدثته عنك كثيرا . وهو ينتظرك غدا فى بيته بشارع محمد على . .

ولم أنم تلك الليلة . وكان أنى مريضا . وأحطيت أرقى فى الحلوس إلى جواره . ولم يكن شيئا غير عادى أن أكون هكذا . فأنا أحب أنى وأرى أنه أحد الشهداء . . شهيد مبادىء وأخلاقيات انقرضت – وكان يجب أن تنقرض . فهو إنسان طيب إلى غير حد . لم أسمعه يكره أحدا . أو يحقد على أحد . لم أره إلا ضاحكا . ولم أر يديه تدخلان جيبه ولاتخرجان بشىء لأحد من الناس . . وعندما مات أنى أحسست أن وفاته مشيئة شعبية . قتل هذا الرجل الطيب يجعلك تواجه وضعا غريبا : أن كل الناس كذابون . وأن كل الناس منحطون وأنهم بخلاء وأنهم خائفون من القفر وأنهم خائفون من الفضيحة وأنهم لايؤمنون بالله . . إنه وحده الذى يعطى كل شىء ولايهاب أحدا ولايخاف من الأيام . . ولذلك كانت وفاته نتيجة لاستثناء شعبى لأن الناس حريصون على القضاء على الذى يفضحهم ويكشفهم !

وقبل أن يطلع النهار ذهبت إلى شارع محمد على ، وعرفت البيت والشقة ووجدت النوافذ مغلقة . ورأيت فى البلكونة

حسن البنا

صناديق ومقاعد كثيرة ، وذهبت إلى أحد المقاهى ، وجلست ثلاث ساعات حتى حان الموعد المتفق عليه . ووجدتنى أدق الباب ، وينفتح الباب ويدفعنى هواء بارد . ولم تخرج من الباب أية رائحة : لاطعام ولاشراب ولا الرائحة المألوفة فى غرف النوم .

وكان الرجل نحيفا أبيض الوجه طويل الأنف صغير الشارب له أذنان مسحوبتان إلى الوراء . خاطبنى بالفرنسية قائلا : أنا جاك كوهين . . تفضل . .

وأشار أن أدخل ، وإلى مقعد بالقرب من المائدة . وجلست واختفى بضع لحظات ، وعاد بكتب صغيرة ، وكانت أمامى على المائدة كميات كبيرة من الفواكه عرفت فيما بعد أنها صناعية – وكانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها شيئا كهذا . وخرجت بعد دقائق والكتب فى يدى ، كأنها هى الأخرى فاكهة جافة . فهى خلاصة الماسونية والبهائية . والكتب كلها قد اتخذت موضوعا واحدا هو « الحكمة الإلهية » . ولم أعد إليه كما وعدته . فلم أفهم من هذه الكتب شيئا . أو أن الذى فهمته ليس هو الذى أريده . . ولا أدعى انى قد عرفت ما أريده بوضوح فى ذلك الوقت !

ولما سئلت بعد ذلك عن رأيى فى هذه الكتب الصغيرة ، لم أجد ماأقوله . ولكنى اتجهت إلى الأستاذ أستوضحه ، فقال : أنت وقعت فى يد ذلك النصاب – ثم ذكر اسم جاك كوهين . .

ومضى الأستاذ يقول لنا : إنهم جماعة من الماسون . . لاهى دين ولاهى فلسفة . . إنما هى جمعيات سرية تخدم أهدافا سياسية . . إنهم جماعة من الجواسيس فى كل بلد . ويتآمرون على البلد الذى يعيشون فيه . .

ثم ذكر الأستاذ عددا من كبار الساسة فى مصر . ثم قال : إن الواحد من هؤلاء عندما يحاول أن يتفلسف فإنه يلخبط الدنيا كلها ويعقدها ألف عقدة . ثم يحاول أن يحلها واحدة واحدة . فإذا عجز . وهذا طبيعى . انهم الدنيا كلها بالعموض . ومادام العالم كله غامضا ، فليس غريبا أن يكون هو كذلك !

● ● ●

إن أستاذنا العظيم سقراط يحدثنا عن شىء من ذلك : وهو أن رجلا امتلأ جيبه بحبات القمح ، وحاول إحصاءها فلم يستطع . فملأ جيوبه الأخرى فى وقت واحد ! ليحصى ما فيها جميعا !

وقال الأستاذ : لقد جاءنى هنا . . وهو الذى طلب مقابلتى عن طريق صديقنا الأستاذ المازنى . ولما استوضحت المازنى ، قال إنه لايعرف إلا أن هذا الشخص مفكر ومتعلم فى فرنسا

سنوات طويلة. جاء هذا النصاب وسألني وأجبته. ولكني سألته: أنت عشت في فرنسا طويلا. وتتكلم اللغة الفرنسية ولغات أخرى كثيرة. وعندك حل لكل مشكلة. ولذلك ترى أن فلسفتك هي أفضل الفلسفات. وأنت جئت تقنعني دون أن تعرف فلسفتي.. لكن. هناك طريقة واحدة لإقناعي وهي أن تحييني عن هذا السؤال. فإذا أجبتني واقتنعت سلمت لك بكل شيء.. ولقد رضي الرجل بهذا الشرط. وأسعده ذلك. فقلت له: كيف تفسر أنهم إذا عجزوا أحد الآباء بين أن يكون ملكًا بشرط أن يذبح طفله، وبين أن يظل على حاله، فانه يختار أن يبقى على حاله ولا يذبح طفله!

قال الأستاذ: أما الرجل فقد أسعده هذا السؤال. وقال: ليس كل الناس يا أستاذ، أنا شخصيا مستعد أن أذبح كل أطفالي لكي أكون ملكا وأتزوج من جديد ويكون لي ماشئت من أطفال!

وكان رد الأستاذ: هذا ما كنت أتوقعه. فلم أكن اتوقع أن نكون انسانا. ولذلك فياحضرة الحيوان عندما تصير إنسانا. فتعال إلي مناقشني!

وعاتب الأستاذ العقاد صديقه المازني الذي أرسل إليه مثل هذه العبثة الفكرية الشاذة.. ومما قاله للمازني وردده بعد ذلك كثيرا:

تقول إنه عاش في فرنسا طويلا؟ إن حياته في فرنسا ليست دليلا على أنه أكثر الناس فهما للفرنسا والفرنسيين أو الفكر الفرنسي.. ولو صح أن المعاشرة والألفة هي وحدها التي تجعل إنسانا أكثر فهما للآخرين، لكان حمالي هذا بحكم معاشرته لي.. أكثر فهما للفلسفة من كثير من أساتذة الجامعات!

وقد صدق هذا على كثير من الذين يعايشون الأدباء والفلاسفة. فلم يحسنوا التعبير عن حياتهم. إنما كانوا يرونهم من زاوية خاصة. زاوية الابن الجاهل. او الزوجة الغاضبة. أو الأخ الطامع..

والشاعر العظيم شكسبير هو الذي قال: ان الملك لا يمكن أن يبدو ملكا أمام خادمه! لأن الخادم يراه عاريا حافيا مريضا غاضبا.. اما الذين يرونه بالتاج والصولجان فهم الشعب: أي أبعد الناس منه!!

أما تتردى على «مدرسة الطائفة الإسرائيلية» في أول شارع مصنع الطرابيش يوم الخميس من كل اسبوع فقد كان غامضا تماما. فلا أذكر في تلك الأيام أنني لقيت أحدا أصبح صديقا فيما بعد. لا أحد. إنما كل الذين يترددون على مدرسة الطائفة الإسرائيلية من الأطفال وبعض الخاخامات.. ولم نكن - اثنان آخران وأنا - نعرف من كل أدباء وفلاسفة اليهود سوى عدد قليل جدا. ربما كان أبرزهم جميعا الفيلسوف موسى بن ميمون، الذي عاش طبيبا خاصا للسلطان صلاح الدين. وألف كتابا اسمه «دلالة الحائرين». وقد كتبه باللغة العربية ولكن بحروف عبرية. وكان الكتاب ضروريا لنا في ذلك الوقت ونحن نتعلم اللغة العبرية. ولا أظن أنا تقدمنا كثيرا في دراسة اللغة العبرية. ولاحتى في فهم موسى بن ميمون. فهو فيلسوف يهودي مشغول بأعقد القضايا التي جاءت في التوراة والتلمود. وله اجتهادات خاصة - أي تفسيرات جديدة في الديانة اليهودية التي لم نكن نعرفها جيدا في ذلك الوقت..

وأسماء أخرى في الفلسفة اليهودية كانت معروفة لدينا: الفيلسوف الهولندي اسبينوزا، وفلاسفة أندلسيون مثل ابن جابيرول وهاليق وسعديا وغيرهم..

رجل واحد لاأذكر اسمه الصغير: إنما أتذكر اسم عائلته. إنه: روزنتال.. كان يسكن في الزمالك. ربما في شارع الكامل محمد. وربما في شارع أحمد حشمت. لست متأكدا الآن. والرجل لابد أنه من أغنى أغنياء اليهود المصريين الآن. قابلته في إحدى المكتبات. واتجه ناحيتي يسألني لقد رأيتك في مدرسة الطائفة الإسرائيلية. ماسمك؟..

وسألني إن كنت من طائفة «القرائين» - أي من اليهود المصريين.. فقلت له: إنني أتردد فقط ولم أدرس شيئا بعد. فليس عندي وقت.

والحقيقة أنه ليس لضيق الوقت لم أدرس شيئا. ولكن لأني لم أعرف ماالذي يمكن أن أدرسه. ثم إن أحدا في هذه المدرسة لم يوجهني إلى شيء.. كما أنني ذهبت فقط لكي استطلع.. لعل أعرف.

وأدهشني مرة أخرى أن يكون اسمي مشتركا مع المسيحيين واليهود. فمن اليهود من طائفة القرائين اسماء مثل: عبد الرحمن وعبد العزيز.

كما أنني اكتشفت فيما بعد أن واحدا له نفس اسمي كان زوجا لشاعرة يهودية اسمها «جويس منصور».. أصدرت ديوانا بالفرنسية في جزءين اسمه: صرخات. وهو شعر جنسي فاضح. وهي ابنة داود عدس.. وقد هاجرت من مصر إلى فرنسا، وانضمت إلى الحزب الشيوعي..

أما الذي أدخلني هذه المدرسة فأحد أعضاء «جمعية المفكرين الأحرار» إنها جمعية أنشأها ونحن طلبة في مدرسة المنصورة الثانوية. كنا ثلاثة: مسيحي ويهودي ومسلم. ولا أعرف الأسباب الواضحة التي أدت إلى تكوين جمعية غامضة الاسم. وفي نفس الوقت فيها كثير من الادعاء: أنها جمعية فكر.. وأن هذا فكر حر.

ولكن ماذا تريد هذه الجمعية؟ ماهي أهدافها؟ ومن هم أعضاؤها؟

لاشيء من ذلك يمكن الإجابة عنه. إنما هي جمعية نضمنا نحن الثلاثة. بأمر ماالذي كنا نبدو في ذلك الوقت؟.. فالكثير جدا الذي نقرأه لأيضا. فكل ما يقرأ كتابا أو يسجل شيئا من خواطره. ثم يقرؤه علينا. ولا أذكر أنا ناقشنا. إنما كنا نستمع إلى بعضنا البعض. وعندما نناقش في موضوع واحد هو أملنا الوحيد. أن نكون من طلبة الأزهر الشريف. فقد أسلم المسيحي واليهودي - هكذا فجأة. ولم نناقش في أسباب ذلك. ثم تحول الاثنان إلى الشيوعية. ولما دخلا الجامعة انضما إلى الإخوان. ولما تخرجا في الجامعة آمنا بالله واليوم الآخر. وواحد منهما الآن لايفارق مسجد سيدنا الحسين..

• • •

وفي يوم ذهبنا متفرقين إلى الأستاذ.. وكنت قد دعوت الاثنين إلى ذلك.

وأدهشني أنهما لم يجدا في الأستاذ العقاد ماأجده أنا. سألت واحدا منهما: هل هذا الذي قاله الأستاذ عن معجزات الأنبياء، وماقاله الأستاذ عن المرأة والفرق بين الحب والعشق، والذي قاله الأستاذ عن الديمقراطية في بريطانيا والفاشية في إيطاليا وألمانيا وروسيا، هل كل ذلك شيء مألوف؟.. هل هو مألوف بهذه البساطة؟.. هل رأيت رجلا تجمعت له العظمة والعزة والكبرياء والبساطة كما وجدت عند العقاد؟

أجاب أحد الصديقين: إنني لاأجد الراحة معه.. إنه أب يركب كتف مدرس، ومدرس يركب كتف فيلسوف، وفيلسوف يركب كتف فقير هندي، وفي يده كرباج يشوي به ظهور الجالسين جميعا وأنت منهم!

وقال الثاني: إنني أشعر ببرودة شديدة.. برودة الحديد والصلب.. ولكني أفضل الذين في مثل سني، وفي مثل بساطتي.. أو جهل.. والذين إذا تكلموا تعلموا.. وفكروا وترددوا.. وتحيروا.. ولكن العقاد لايتعلم ولايفكر.. إنما الكلام يخرج من فمه ورقا مطبوعا.. ويدخل في أذنيك دون إذن منك.. إنني تمردت على رجال الدين.. وتمردت على الشيوعيين لهذا السبب وكذلك على أبي وأمي..

وكانت الزيارة الأولى والأخيرة لهذين الصديقين.

ولاأدعي أنني كنت على مستوى الأستاذ أو قريبا من ذلك.. ولكنه أحد أعمدة النور في طريق.. أحد رجال المرور إذا ازدحمت الرءوس وتوقف مسار الفكر فيها.. بل لم يكن فقط أحد رجال المرور، بل إنه أحد الذين شقوا الطرق ورصفوها وأضاءوها. وهو عندما يحرك ذراعيه يمينا وشمالا.. فكثيرا مارتطمت بوجوهنا.. وكان سوء الظن يجعلنا نقول: صفعنا.. وحسن الظن يؤكد أنه: شجعنا على المضي..

وكنا نحسن الظن به دائما.. بل لم يكن هذا الذي نحس به في حضرته ظنا، إنما هو يقين وبرهان وبيان. أما الظن فقد كان زادنا اليومي في كثير من المحاضرات الجامعية.. ثم كانت هذه «الدوخة» فعلا التي وصفها زميل في جمعية المفكرين الأحرار..

فهو مهيب الأستاذ كنا نلملم أنفسنا.. كما يحدث في مواجهة العواصف.. نزرر الجاكتة ونغطي الصدر والرقبة والرأس أيضا. ثم نكمش ونتماسك ونتساند.. فما معنى ذلك؟ معناه أن الإنسان عندما تهب عليه الريح فإنه يحاول أن يجعل «المساحة» المعرضة من جسمه أقل..

أما البرودة التي تحدث عنها زميلي في جمعية المفكرين الأحرار فسببها أيضا أن الأستاذ يجردنا، يعريء عنا، من كثير من الأفكار الدافئة.. أي الأفكار التي نغطي بها ونحس كأنها بشرة ثانية.. ومن بين هذه الأفكار أن تكون هناك جمعية للتفكير أو للتأمل.. إن الجمعيات تتنافى مع الفكر الحر.. وتتنافى مع الإبداع.. فالفكر عام والإبداع فردي.. والناس يتشابهون في أفكارهم، ولكنهم يختلفون في أجسامهم.. يختلفون في بصماتهم على الفكر وعلى العلاقات وعلى الأشياء..

والأستاذ من أشد الناس إيمانا بالمفكر الانجليزي توماس كارليل الذي يؤمن بان التاريخ يصنعه الأبطال. وان البطل هو القوة المحركة للتاريخ. وأكثر ماكتبه الأستاذ عن الأبطال أو عن العباقرة الذين هم نوعية فريدة بين الناس. فالانسان العظيم يظهر فجأة دون مقدمات وراثية أو اجتماعية أو أخلاقية. فالأستاذ نفسه شيء فريد في أسرته وفي بلده..

ولذلك يسخر الأستاذ من الجمعية والجماعة والمدرسة الأدبية والفلسفية.. ويرى أن البطل أو العبقري هو الطلعة والمدرسة وناظر المدرسة.. ليست له مقدمات وليس له أتباع..

ولذلك فليس أدعى للضحك - يقول الأستاذ - من أن يكون الإنسان حرا وفي نفس الوقت حريصا على أن يكون عضوا في جمعية ليكون له فكر مستقل عن الجمعية.. أي فكر حر..

ولم يدر الأستاذ أنه أجهز على الجمعية ودفنها في أعيننا وبأعيننا، وترك لنا مهمة السير في جنازتها!

لم يبق بعد هذا كله إلا ماكنا نقرؤه وننتشر على الإعجاب به..!